

الإسماعيلية والقرامطة

قلم عارف ناسر

[يعتبر الاستاذ « عارف ناسر » بنظر العلماء والباحثين والمشرقين احسن من كتب وبحث في التاريخ الاسلامي وخاصة ما كان متعلقاً بالحركة الباطنية والاسماعيلية الفلسفية . . . والبحث الذي نشره المشرق الآن فيه كل ما يفيد طالب العلم ، وراغب الاطلاع] .

كم يطيب لي ان اتحدث الى قراء مجلة المشرق القراء عن موضوع خطير يحتل ناحية هامة في تاريخنا الشرقي ، وعن فكرة نشأت في العالم الاسلامي فاحدثت فيه دورياً واتقلاباً وحولته من عالم ضيق منكس بفكاره وعاداته الى عالم طليق يسير باتجاه مستقيم على اسس من القوة والمبقرية والعقل والاتزان . هذا الموضوع هو الحركة الاسماعيلية والقرمطية وكلا الفرعين باعتقادي يشكلان وحدة تامة مشتركة تلتقي مع اختها على صيد واحد ثم تتفرق لتعود الى الالتقاء ثانية في مضار الآراء . والمعتقدات ، واذا كان بحثنا ههنا سوف يقتصر على الناحية التاريخية فلأن المواضيع الاسماعيلية ذات فروع وشعب مختلفة يجب ان يكون لكل منها طابعه وموضوعه ، ومنها يمكن من امر فلا يد لي من القول بان تراثنا التاريخي الشرقي لا يزال في حاجة ماسة الى ان يدرس دراسة منظماً على ضوء الحقيقة والتجرد والواقع ، وان تحقق موضوعاته بطرق البحث الحديثة السليقة ، وان يكشف عما فيه من كنوز ثمينة وثورات عظيمة وذخيرة غالية من علوم ومعارف كانت ولا شك هي الاسس الثابتة والسدعائم القوية لكل تقدم وازدهار وحضارة .

يتميز المؤرخ الكبير (ابو جعفر محمد جرير الطبري) المتوفي سنة ٣١١ هـ اول من بحث ترويج الحركة الباطنية والدعوة الاسماعيلية ، وجاء بعده (عريب بن سعد القرطبي) المتوفي سنة ٣٨٠ هـ . فوضع ذيلاً لكتاب الطبري استعرض ما جاء فيه من معلومات واطاف اليها بحثاً عن قرامطة البحرين ولكنه كان كاستاذ الطبري سطحياً فلم يربط بين الحركتين الاسماعيلية والقرمطية وانما سار في اتجاه معرج فاخطأ الهدف وضل في صحراء من الاخطاء . لا نهاية لها .

وجاء (المسعودي) المتوفى سنة ٣٤٤ هـ في كتابه التنبية ومروج الذهب فدون في صفحات قليلة حوادث القرامطة ومن الجلي الواضح ان معلوماته جاءت احدث من معلومات الطبري ، اما ابن رزام الذي عاش في اوائل القرن الرابع الهجري فقد اطلع على مبادئ الحركة الباطنية حتى نظام التأويل لديها فكذب ولكنه ظل بعيداً عن الحقيقة والواقع بركونه للاستنتاج العقلي وللخيال ، واهم من كل من ذكرناهم المؤرخ (حمزة الاصفهاني) الذي عاش في القرن الرابع الهجري فقد اقتصر فيما كتب على اعمال القرامطة الحربية ولم يشر الى دعوتهم الفلسفية والمقائدية ولا الى صلاتهم بغيرهم ثم ان (الصائفي) المتوفى سنة ٤١٧ هـ ومكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ فقد كتبا مجزئاً طويلة ونافذة في هذا الموضوع ، ومن الذين نهجوا نهج ابن رزام وسار على طريقته ونهجه في كتاباته نظام الملك وابن شداد وابو الفداء. ورشيد الدين ثم جاء النويري وبمده المتريزي وهذا الاخير يستمر في طليعة المؤرخين الذين نجحوا الحركة الاسماعيلية بحثاً متفيضاً قائماً على اهداف ثابتة من التجرد والانصاف والواقع ، وجاء المتكلم الكبير (ابو الحسن الاشعري) المتوفى سنة ٣٢١ هـ فوضع ابحاثاً مفصلة عن الاسماعيلية جاءت مفيدة على وجه العموم ، اما (الملاطبي) المتوفى سنة ٣٧٧ هـ فقد عني بالتغنياد اكثر من عنايته بالشرح والتوضيح ، واما من هو اكثر اسهاماً في هذا الموضوع فهو (ابو منصور عبد القادر بن طاهر البغدادي) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ والشهرستاني الذي ذكر مصادر اسماعيلية باستفاضة منها وافاد ، ونستطيع ان نضيف الى هؤلاء جمال الدين بن الجوزي الحنابلي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ لانه اعطانا فكرة عامة ونبذة موجزة عن تحركات الباطنية . وهناك مصادر اخرى بحثت هذه الحركة بحثاً عرضياً غير مفصّل . وقد اقدمنا كتاب معرفة اخبار الرجال لابي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي وهذا المؤرخ عاش في القرن الرابع الهجري وهو تلميذ للامامين الشيعيين ، الكبيرين ابي القاسم نصر بن صباح البلخي ، وابي نصر محمد بن مسعود العياشي المرقندي ، اما النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ والطوسي المتوفى سنة ٥٨٨ هـ فقد بحثا الحركة الاسماعيلية بحثاً متفيضاً وترباً الى الازهان شيئاً من الواقع .

هذا وان النونجتي المتوفى سنة ٣١٠ هـ والاسترابادي المتوفى سنة ١٠٢٨ هـ

واين خلدون والسيرطي ، واين القلانسي ، واين النديم ، والنيابري ، واين خلكان ، واين حوقل ، ونايت بن سنان فانهم جميعاً قد بحثوا الحركة الاسماعيلية واعتبروها من اهم الحركات الفكرية التي وُلدت في العالم الاسلامي فاحدثت فيه تأثيراً واضطراباً وانقلاباً في الآراء والمعتقدات .
ونتقل بعد ذلك لنأتي على ذكر العلماء والمثقفين والباحثين المعاصرين فنقول :

ان الكتابة عن الاسماعيلية بدأت بالفعل عندما جمعت بعض مقتطفات من اسماعيلية سوريا الوسطى نشرها (ستانيلاس غويارد) وقد نشرت بعض المجلات الروسية قطعة او قطعتين وجدتاه عند اسماعيلية آسيا الوسطى ، وعثر (غزيفيني) سنة ١٩٠٥ م على عدد من مصنفات الاسماعيلية في اليمن وقد اجمل بعضها في مقال عام ثم جاء دوزي ، وارنولد ، سيلفتر دي ساسي ، ودي فرييري ، وامور برنس ، وموريس ، باريس ، وبروكلمن ، وشتروقان ، ومينورسكي ، وبراون ، وبرنارد لويس ، وكراوس ، وسترن ، وماسينيون ، وحتى ، وهرودكن ، فكثروا عن الحركة الاسماعيلية وازادوا الى مصادرها ذيولاً كانت جداً مرفقة ومن الاهمية بمكان وقد اعطت نتيجة مشرفة . اما (ايثانوف) فيعتبر في طليعة الباحثين الذين كتبوا التاريخ الاسماعيلي وقد برهن عن فهم عميق ومعرفة راسخة . وجاء الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور حسين همداني ، والدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور طه احمد شرف ، فكثروا مجرتاً مستفيضة عن الاسماعيلية لا نستطيع الا ان نهنئهم عليها فهي والحق يقال قد سدّت فراغاً واسعاً وكشفت عن بعض النواحي القامضة ، اما العلامة الهندي الاستاذ آصف فيضي فيعتبر من الاختصاصيين في الفقه والقانون الاسماعيلي ، ويعتبر الدكتور (زاهد علي) من الاختصاصيين بالادب الاسماعيلي ايضاً ، ويوجد هناك بمشرق كبير وعلامة عظيم تفهم الفلسفة الاسماعيلية حتى الفهم ووصل الى اعماق هذه الفلسفة هو الاستاذ هنري كوربان مدرس الدراسات العالية في جامعة السوربون فكثيراً ما كانت اجابته تتخذ طابع الجهد والاهتمام وتفويض بالفهم والمقل والنوص في الاعماق ، ومها يكن من امر فان الدراسات الاسماعيلية قد تطورت تطوراً ملحوظاً حتى شملت مختلف النواحي الفكرية من عقائدية وفلسفية

واجتماعية وسياسية فظهرت الى عالم الوجود مصادر تاريخية جديدة ومخطوطات علمية قيمة كانت في طي الحفا. فألقت بعض الانوار على هذه الفلسفة المستورة ومن المصادر التي ظهرت لعالم الوجود كتاب (عيون الاخبار) وهو مجمل لتاريخ الدعوة الاسماعيليه وضعه السداعي الاسماعيلي اليمني الاصل (ادريس عماد الدين) وهناك مخطوطات الفقيه الاسماعيلي الكبير العلامة القاضي النعمان بن محمد بن حيرن المغربي التميمي ، وما خطه الرحالة الاسماعيلي الفارسي (ناصر خسرو) في كتابه (سفرنامه) مضافاً الى ذلك بعض المخطوطات لتاريخ الاسماعيليه السوريه ومنها كتاب (فصول واخبار) وتبذل الآن جهود كبيرة لطبعه هذا فضلاً عن المخطوطات العلمية والفلسفية التي طبعت وهي اكثر من ان تحصى .

رجّت بلاد الخلافة العبّاسية اثنا. المصور الوسطى للاسلام حركة دينية اجتماعية فلسفية وسياسية مما هدّدت كيان الخلافة الاسلامية زمناً ما ؛ وقد توفقت عندما بلغت الذروة ان تنشئ في القطر المصري خلافة فاطمية شيعية مناوئة للخلافة العبّاسية السنية في بغداد واقل ما يقدر فيها انها تساويها قوة وتفوقها غزوة ومضاء وانها كانت صاحبة الشوط الاول في مجال العلم والمدنية وفي طليعة الدول العاملة لبثاء حضارة عالمية تقوم على اساس من العلم وعلى دعائم من القوة ، اقول : قوة .. لانه من الواضح اننا قلنا نجد في المجتمع الاسلامي مذهباً او دعوة الى تغيير نظم عقائدية كانت او سياسية او اجتماعية الا استندت على القوة والعنف وقامت بمجد السيف . واني قبل ان ابدأ بالحديث عن هذه الحركة لا بد لي من تقديم هذا العرض الموجز فاقول :

كانت الدولة الاموية عربية النزعة والطابع وعلى الرغم من خضوع كثير من الشعوب الاسلامية غير العربية ذات التاريخ الحافل اليها فلم يؤمن بنو امية بغير العرب فمنهم كان الولاة والقواد ورؤساء الدولة والحكام والامراء . ولهذا كره الموالي حكمهم وعملوا على اسقاطهم وكان العاويون وشيعتهم اعظم اعداء الامويين خطراً وقوة فالحلاف بينهم قديم منذ عهد علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وقد اضطهد الامويون بني هاشم جيماً وقابلهم هزلاً . بان عملوا على تقويض دولتهم ، وقد كانت الدعوة في بادئ الامر لآل البيت دون تخصيص

بعلوين او عباسيين ثم لما تنازل ابو هاشم بن محمد الحنفية زعيم الحزب الكيساني الى محمد بن عبدالله بن عباس قومي الحزب العباسي واشتد ساعده ولكن ابا مسلم الحراساني كان يدعو لآل البيت بلا تعيين وانتهى الامر بتغلب العباسيين وتولية ابي العباس السفاح الخلافة بوزارة الفرس خاصة والموالي عامة وكان ابو العباس برأ بأل علي قريهم واغدت الاموال عليهم ولكنه بالوقت ذاته كان يحشام ويدبهم عن كذب ويفري بهم من يحصي عليهم الاخطاء ، ولما ينس العلويون من الخلافة خرج محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن ابي طالب المعروف بالنفس الذكية على ابي جعفر المنصور بالمدينة وغلب عليها فحبس المنصور اياه عبدالله واهله من بني الحسن في سجن الكوفة وقد ماتوا فيه ووجه الى النفس الذكية الذي كان قد خرج الى الحجاز وتلقب (بالمهدي) جيشاً بقيادة ابن اخيه عيسى بن موسى وكانت الغلبة لجيش المنصور فقتل النفس الذكية وحمل رأسه الى المنصور سنة ١٤٥ . وعندئذ قال بعض الزيدية ان الامام من بعده هو اخوه ادريس الذي فر الى المغرب الاقصى واختط مدينة فاس واسس دولة الادارسة ، وقد كانت هذه الحادثة انذاراً بالآثار للعلويين بعهدي طويل من الاضطهاد الشنيع دونه ما لا قوه من بني امية ، وهذا سبب رئيسي لهذا النزاع الداخلي والسبب الآخر هو اقصاء بيت الرسول بعد وفاة النبي محمد عن زعامة المسلمين وقد كان هذا اقصاء سبباً بالحروب الدامية مع بني امية وظهرت الفرق الشيعية تناصر الحسن والحسين وتلفت حول زيد ابن علي وابنه يحيى وتقوم بدور كبير محاولة ازالة سلطان الامويين ولكنها انخفت في الجولة الاولى فمُ الحسن وقتل الحسين وقد ظهر انها عجزت في عهد الامويين عن تحقيق اهدافها في سيادة العالم الاسلامي ومرد ذلك كما هو جلي وواضح الى انتقام الشيعة الى حسين وحسينين وحنفية ثم الى هاشميين ولأن الدولة الاموية كتبت في ابان قوتها واتحادها اضعف الى ذلك انتقال حق الامامة من ابي هاشم بن محمد بن محمد بن الحنفية الى محمد بن عبدالله العباسي وجاءت الدولة العباسية كما اسلفنا لتحكم العالم الاسلامي فحمل لواء المعارضة بنو الحسن ومنهم محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس الذكية واخوه ابراهيم فضاقت ذراعاً بهم ابو جعفر المنصور ثم قتلها وقد كان ذلك سبباً حاداً بالفرع

الحسيني لان ينضم الى جعفر الصادق الحسيني ثم الى ابنه اسماعيل ولكن الانقسام بينها فيما بعد عاد سرّاً حول القيادة بما دعا جعفر الصادق الى تكوين جماعة ذات طابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعي والديني والسياسي تلك الجماعة هي الاسماعيليّة .

اجل اقام السياسيون دولتهم على غير اساس ثابت لانهم تنكروا للعرب ولم يعتمدوا عليهم مع انهم ركنهم الذي يارون وشجرتهم التي يستظلون واصطفوا الفرس وركنوا اليهم وجعلوا منهم الولاة وقواد الجيش وعمال الحراج ورؤساء الدولة وظهرت العصية الباسية باجلى مظاهرها وانضت للفرق الشيعة وألفت كتلة كبيرة اتحدت وشكلت الدولة الباسية فكان اركانها والقائمون عليها هم الذين ذاقوا صنوف الاضطهاد بعد الدولة الاموية ومنهم الشيعة والفرس وكافة العناصر المسلمة غير العربية فذبّ الفساد وكثر الحمد وقامت المؤامرات بالسر والملاية واستقلت عدة ولايات واصبح كل امير بطمع في ان يكون والياً على ولاية يتصرف بمقدراتها ويتحكم بشؤونها وكانت الحادثة التي هزت كيان العالم الاسلامي عامة والشيعة بجميع فروعها خاصة ما فعله المتوكل بافه الباسي سنة ٢٣٧ هـ بهدمه قبر الحسين بن علي بكر بلا. وعو ما حوله من المنازل والدور وتصفه في ممامة الشيعة تصفاً خطيراً وكانت هناك دعوة تقام في السر لهدم هذه الخلافة لتشييد على انقاضها خلافة ترتكز على دعائم من العلم والقوة ، هذه الدعوة هي الاسماعيليّة .

نشأت الاسماعيليّة نشأتها الاولى سنة ١٢٨ هـ في العراق وفارس كدعوة دينية من قبل الفقيه المتصرع الملامة الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب ويذهب بعض علماء الاسماعيليّة الى القول بان دعوتهم قديمة منذ عهد اسماعيل بن ابراهيم الخليل وبالرغم من وجود ما يثبت هذا الزعم عقائدياً فاننا لا نجد بين ايدينا مصادر تاريخية تؤيده تأييداً قاطعاً وهذا ما يجعلنا مع اكثر الباحثين والمهتمين نولي اهتمامنا عند بحث الاسماعيليّة مبتدئين بعهد اسماعيل بن جعفر الصادق وما بعده فنقول .

ان هذه الدعوة قد بدأت تتحوّل الى حركة سياسية سنة ٢٥١ هـ ثم الى دعوة سياسية اجتماعية عامة تأخذ طريقها لتحرك العقول من جودها الضيق

وتخرجها من عزلتها وانكماشها وتُضفي عليها الانطلاق الرحيب وتبذ البدع والتمسك بمقيدة واقية بنظمها وقوانينها . فاجتمع نفر من الدعاة المجتهدين بعد وفاة الامام جعفر حول نجله اسماعيل ورفضوا الاعتراف بامامة اخيه موسى الكاظم وعاهدوا اسماعيل وقاموا بالدعوة له وهذا حسب اعتقاد الاسماعيلية الذين يقولون بان اسماعيل لم يمِت بحياة ابيه ، وبعد موته ساقوا الامامة بولده محمد وكان يقيم في فارس واطراف العراق ثم يولده (عبد الله) الذي انتقل الى سُلَيْمِيَّة - سوريا واقام فيها متقرباً بعيداً عن الانتظار يحيط به رجال دعوته البارزين ، وفي هذه الفترة ظهر كتاب رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ونشر فكان دعوة عامة عجلت بالقضاء على المجمع الصاسي القائم على تعاليم جامدة سطحية لا اثر فيها للفلسفة وفي هذه الفترة تماماً ظهرت الفرقة الترمطية الاسماعيلية تدعو الى مبادئ اشتراكية متطرفة كانت ترمي الى احداث ثورات شبيهة وعمالية وزراعية وصناعية ضد الملاكين والاقطاعين والاثرياء . وكانت هذه المبادئ من وضع الامام محمد بن اسماعيل ، وقد انتشرت سريعاً في المغرب سنة ٢٩٦ هـ على يد ابي عبدالله الشيعي ، وفي اليمن ٢٧٠ هـ على يد ابن حوشب منصور اليمن وابي الفضل الجديني ، وفي البحرين على يد الحسين الاهدازي ومحمد بن الاشعث وابي سعيد الجنابي « الحسن بن بهرام » وذكرويه بن مهرويه (الفرج بن عثمان الكاشاني) وفي مصر على يد ابي علي الداعي المقيم ، وفي فارس على يد نصر بن احمد الساماني امير خراسان وبلاد ما بين النهرين ومرداويزج الديلي امير طبرستان ، ويوسف بن البايغ امير اذربيجان ، وعندما تم ظهور الامام الحادي عشر (محمد بن المهدي بالله) او (عبيد الله) نقل عاصمة دعوته من سُلَيْمِيَّة - سوريا الى المهديية في المغرب وجعلها عاصمة الخلافة الفاطمية ، وبعد ان استمر حكمه ورسخت اقدام دولته مات قتلها ولده القائم ، ثم المنصور ، ثم المعز لدين الله الذي فتح القطر المصري سنة ٣٥٩ هـ ونقل عاصمة خلافته من المغرب الى القاهرة وبعد ذلك تعاقب على شؤون الخلافة الفاطمية بعد المعز لدين الله ولده العزيز ، ثم الحاكم بامر الله ، ثم الظاهر لاغزاز دين الله ، ثم المنتصر بالله ، وفي نهاية عهد الاخير طرأ على الدولة الفاطمية الانحطاط وبدأ نجمها يميل نحو الافول ، فبعد ان انتقل الامام المستنصر بالله لدار الآخرة وقع

الاختلاف على الخلافة بين ولديه تزار والمستعلي ولماً كان المستعلي وهو الابن الاصغر تربطه بيدر الجمالي قائد جيش الدولة الفاطمية المصرية اواصر القرابة لجهة والدته تمكن من الانتصار وانتزاع الخلافة من تزار وهكذا انقسمت الاسماعيلية الى فرقتين مستطية وتزارية فاماً التزارية فقد ودّعت ربوع وادي النيل وانتقلت الى فارس وجعلت عاصمة ملكها قاهة «ألموت» وقام على شؤونها الداعي الكبير «حسن بن الصباح» وكان انصارها يقيمون في سوريا والعراق وفارس، وراماً المستطية فقد انتقل حكمها بعد المستعلي الى الأمر ثم الى الحافظ ثم الى الظاهر ثم الى الفاتر ثم الى العاضد وفي عهد آخرهم العاضد انتزع صلاح الدين الايوبي الملك وهكذا انتهت الدولة الفاطمية من ربوع الكنانة وانتقلت بفرعها التزاري والمستطية لتتخذ شكلاً جديداً، والمستطية الاسماعيلية هي «البهرة» الآن بفرعها السليمانية والداوذية وتقيم في الحجاز بوادي نجران وفي اليمن في صنعاء والجديدة وفي افريقية والهند وباكستان وعددها يقارب المليون، أما التزارية التي استقرت دعوتها في فارس فقد تسلسل منها سبعة ائمة بعد المستنصر بالله آخر خليفة فاطمي في مصر، وقد اقاموا جميعهم في «ألموت» الفارسية وكان آخرهم شمس الدين بن محمد وبعد موته انقسمت التزارية الى قسمين هما «المؤمنية» و«القاسمية» فالمؤمنية هي التي قالت بامامة «مؤمن شاه» نجل شمس الدين الاكبر وتوطن هذه الفرقة الآن في جبال طالقان الفارسية واذريجان ورامير في الصين وبدخشان وتاكجستان في روسيا وبعد مؤمن شاه انتقلت الامامة الى ولده رضي الدين ثم الى طاهر وحيدر وصدر الدين ومعين ثنتين وخدايي بخش، وعزيز ومعين الدين، ومحمد مشرف، وحيدر، ومحمد الباقر، وهذا الامام الحبير عاش حتى عام ١٢١٠ هـ وبعبه انقطعت الفرقة المؤمنية الاسماعيلية عن الاتصال بهذه الاسرة الفاطمية الاصل العلوية النسب وقالت بان الامام يعيش الآن في السر الكفيف وسيعود يوماً لينملاً الارض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، أما القاسمية فقد ساءت الامامة بنجل شمس الدين الثاني وهو قاسم شاه وبنجوله اسلام ثم محمد ثم المستنصر بالله وعبد السلام وغريب ميرزا وابو اللد علي ومراد ميرزا وذو الفقار علي ونور الدين علي وخليل الله علي وتزار علي والبيد علي وحسن علي وابو الحسن علي وخليل

الله علي ومحمد حسن علي وعلي شاه ومحمد وهو «آغا خان» المعروف وهذه الفرقة تقيم الآن في الباكستان والمند وأفريقيا الشرقية والجزيرة ومدغشكر وسليّة والحوايي قرب طرطوس وفارس ولا يمكن تقدير عددها .

هذه لمحة خاطفة عن تاريخ الدعوة الإسماعيلية قدمناها لنتقل منها إلى القول بأنه بعد هذا التطور بالدراسات وبعد ظهور هذه المصادر والمخطوطات أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنها رسالة فلسفية مستقلة ودعوة سياسية إيمية ذات أثر ظاهر يجري الحياة العامة وفكرة عقائدية باطنية تخفي وراءها أهداف ومقاصد لا يزال النكر يسمى جلاء غوامضها وسر غورها واكتشاف كتبها وليس ادل على ذلك من أن هنم الرسالة الفلسفية كانت تغزو الاقطار الشرقية والقرية على السواء. فيسارع إلى اعتناقها، كل من يتيسر مباحثها وتعاليمها بصرف النظر عن الاقليم أو البلد أو الجنس أو العرق وهذا ما جعلها تسر وترتفع على أيدي أئمة اعلام صادقين وحجج نجيبين كانوا على جانب عظيم من الثقافة والمبكرة فتصل إلى مصاف الدعوات الإيمية الكبرى التي أثرت في العقول وأخرجتها من حيز الجلود إلى الانطلاق الرحيب .

لقد قلنا أن الشيعة الإمامية اتهمت بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ إلى فريقين فريق نادى بإمامة اسماعيل وهم الإسماعيلية وفريق نادى بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق وابتدأه من بعده وهم علي الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري ومحمد المنتظر وهو الإمام الثاني عشر الذي اختفى في سامراء سنة ٢٦٠ هـ . ولا يزال انتصاره ينتظرون عودته ويعرفون أيضاً بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق ثم يعرفون بالاثني عشرية نظراً لانتظارهم امامهم الثاني عشر ولا يريد أن يدخل في بحث قصة اسماعيل ووفاته في عهد ابيه وتقولات الموسوية والسنة واقوال الإسماعيلية إلى ما هنالك لان هذه القصة تشكل موضوعاً مستقلاً ولكن هناك ناحية يجب الاتيان على ذكرها وهي هل قامت الدعوة الإسماعيلية في عهد اسماعيل ؟ أم في عهد ولده محمد ؟ أم في حياة ابيه جعفر الصادق ؟ الواقع أن بذور هذه الحركة قد بذرت بعهد جعفر كما قلت ولا يوجد هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة، وقد كانت هذه الدعوة سرية وكان يعمل لها في الخفاء. اسماعيل بحياة ابيه يعاونه

الداعية الكبير ابو الخطاب وجاء بعد اسماعيل ولده محمد وكان على جانب كبير من العبقرية والثقافة راجع الفكر ثاقب النظر وكانت حياته سلسلة من الجهاد في سبيل الدعوة وقد فر من المدينة الى العراق ثم الى الري ومنها الى دومانند وهو جبل قريب من الري واستقر هناك بقرية تدعى (سحلا) اطلق عليها فيما بعد اسم (محمد اباد) نسبة اليه ومن الواضح ان فرار محمد بن اسماعيل من المدينة لم يكن خوفاً من المبسين وانما كان لنشر الدعوة الاسماعيليه في كافة انحاء العالم الاسلامي ولذلك لا نراه يستقر في مكان حتى يذهب الى اخر فطوراً في فرغانة والري وطوراً في العراق وسوريا ينشر التعاليم ويند البذور ، ومحمد بن اسماعيل حسب ترتيب الدعوة الاسماعيليه الفلاني يعتبر امام السابع والامام السابع له اعتبار خاص فهو صاحب ثمره علمية انتقالية وناسخ عهد وقاتح عهد ومن القاء نظرة على تاريخ حياة محمد بن اسماعيل يتبين لنا انه هو موجد دور السنن وان امامت كانت بداية دور جديد في تاريخ الاسماعيليه ونذهب الى ابعد من ذلك فنقول بانه جاء بتعاليم جديدة نسخت بعض تعاليم الشريفة التي سبقته وهو ايضاً بالحقيقة اول امام رفع التكليف الظاهرية ونادى بالتأويل وبالمنه الباطني وقد كان يعتمد في نشر دعوته على حجة انداعي الكبير ميمون بن قداح وسيزي عندما نتوسع بالدرس ان اسرة القداح لعبت دوراً هاماً في تاريخ الاسماعيليه .

وفي الواقع ان محمد بن اسماعيل ترك عدداً من الابرار ومنهم عبدالله الذي ولّاه ولاية عهده وكان اكبرهم واما الآخرون فهم علي بن الليث واحمد والحسين الذين فتك بهم المبسين في خوارزم وكان ولده عبدالله يلقب بالرضي والناصر والقطار وقد ولد في عهد الرشيد المباسي واحاطه والده بفريق من دعائه المخلصين وغلا هو وانصاره في اخفاء امره حتى لا يقع في ايدي المبسين وهكذا نصب محمد بن اسماعيل ولده عبدالله ولياً لهده وامر حججه ودعائه وخاصة الاربعة الحرم ان يسمى كل منهم باسمه اي (عبدالله) فكان حين يحين وقت اخذ الهد على احد المستجيبين يسي احد اولئك الحرم باسمه وهو عبدالله وهكذا اصبح تحقيق شخصية الامام متمذراً حتى على اقرب الناس وحتى على الدعاة انفسهم في الجزر والامصار البعيدة والقريبة على السوا.

وصار الجميع يقولون ان عبدالله بن ميسون القداح هو الامام وقال غيره بل هو عبدالله ابن مبارك وجاء فريق يسمى عبدالله بن حمدان او عبدالله بن الحسين الى ما هنالك من اقوال وتخرصات جاءت جميعها تظمن بنسب الفاطميين واني لا اجد ابلغ من رد الشاعر الكبير الشريف الرضي على هؤلاء واثباته نسب ابنا عمومه الائمة الفاطميين :

ما مُقامي على الهوان وعندي	مقول صادم وأنت حمي
وابناء مخلق بي عن الضيم	كما راغ طائرٌ وحشي
اي حذر له الى المجد ان ذل	غلام في غمده الشرفي
البس السدل في ديار الاعادي	وبجر الخليفة العلوي
من ابوه ابي ومولاه مولاي	اذا ضاني اليد النصي
لفاً عرقى برقه سيدا الناس جميعاً	محمد وعلي
ان جوعي بذلك الربيع شبع	وأوامي بذلك الظل ري
مثل من يركب الظلام وقد امرى	ومن خلفه هلال هضي
قد يذل العزيز ما لم يشر	لانطلاق وقد يضام الابي

قد لا اكون مبالغاً اذا قلت بان هذه الحركة الاسماعيلية التي تحدث عنها جديرة بالدراسة والبحث ففي تلخيصها ما يُثير الاعجاب وفي فلسفتها ما ينفذ الفكر ولا شك ان نظامها يقوم على الاخاء والمودة ويربط الفرد بالمجتمع بوسائل قوية بحيث يرى هذا الفرد ان حياته في تماسك الجماعة ولذلك ترى الاسماعيلية في كل مكان وفي كل عصر وزمان تربطهم جامعة واحدة ويزي مجتمهم يتكون من افراد مختلفي المشارب والتزعات يقبدهم رباط الحب والالفة والتفاني في سبيل النهوض بدعوتهم والدفاع عن عميد دعوتهم الذي هو (الامام).

ويرجع نجاح الدعوة الاسماعيلية في بدء ظهورها الى عوامل مختلفة منها ضعف العالم الاسلامي عامة والدولة العباسية خاصة وتحاذل الطوائف الشيعية الاخرى وتحمس الناس لنظرية المهدي الذي يأتي لينقذ البشرية من الظلم والظمان وتظلمهم بشرف الى ظهوره ، ثم الصبر والهدوء والكتمان والصدق والثقة بالنفس وقد غمرت الدعوة الاسماعيلية امواج من السرية الدقيقة حتى التبس

الامر على المؤرخين فلم يقفوا على حقيقة القائمين عليها اهم من الدعوة ؟ ام من الائمة الحقيقيين من ابنا اسماعيل ؟ والحق ان رئاسة الدعوة في عهد الامام « محمد المهدي بالله » وقبل عهده وضمت مخطط الدعوة السرية وان القائمين عليها نجحوا نجاحاً كبيراً في تكوين مجتمع اسماعيلي قوي عماده التقية والتخفي الكيف ، فانظر الى ابي عبدالله الشيعي الداعية الاكبر يكرم امره فلا يدري الاغلبة عنه شيئاً حتى يدمهم بمحور سنة ٢٩٨ هـ . وانظر الى ابي سيد الجنابي يكون دولة سنة ٣٠١ هـ او ما يشبه الدولة في بلاد البحرين التي كانت تابعة للعباسيين دون ان يعرفوا في بادئ الامر شيئاً عنه ، واني لا اتخطى الحدود واستبق الحوادث التاريخية اذا قلت بان النجاح الكبير الذي وصلت اليه الاسماعيلية في تقويض اركان الدعوة العباسية مرده الى المنظمات السرية التي بذرت بذورها وتمهدها ائمة الاسماعيلية الاربعة عبدالله بن محمد بن اسماعيل ، واحمد ، والحسين ، ومحمد المهدي بالله مؤسس الدولة الفاطمية وان اعظم ما في الحركة الاسماعيلية تنظيمها واساليب دعواتها العجيبة التي تدل على ادراك عميق لانبيات شعوب الشرق الادنى وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر عندهم فقد كانوا يبتغون باختيار دعواتهم كل الاعتناء. ويؤودونهم بارشادات مهمة تتفق وروح البيئة التي يدعون اليها وقد كان من تعاليم هذه الحركة ان يدمج المأويين والمالبيين في هيئة واحدة وان يجمع في حظيرة جمية سرية هائلة ذات مراتب عديدة بين احرار المفكرين الذين لا يرون في الدين وسيلة لسيادة الشعب وبين الغلاة من جميع الطوائف وان يحمل من المؤمنين آلات حيا. تعد المتشككين بالقوة وان يحمل الظالمين على قلب الدولة التي شادوها وان ينشئ حزباً كبيراً مزتافاً يرفع في الوقت المناسب ان لم يكن هو فعلى الاقل ابناؤه وهي فكرة عجيبة نفذت بجذق مدهش وبراعة نادرة وخبرة عميقة وقد كانت تشمل على برنامج سياسي واجتماعي منظم يقوم على العقل والتسامح والمساواة الاجتماعية والاقتصادية وهذه الناحية التي طغت على المجتمع كانت ثورة على التعاليم الاسلامية. وبالحقيقة ان الحركة الاسماعيلية لم تتخذ شكلاً واحداً ولا اقتصرت على اسم معين بل ظهرت باشكال وصور متعددة في نظرياتهما وتنظيماتهما فكانت دأبة على ضم فرق جديدة الى صفوفها وازافة اراء جديدة الى مذهبها .

وزيادة على ذلك كالت تجزأ الى شعب متنافرة في الغالب .
ولا يقل اثر التمس في نجاح الدعوة بهمد امامة المهدي عن اثر التمس في
السرية فقد كان من سياسة المهدي الاستعانة بسوف انصاره لتحقيق مآربه التي
يتلخص في تكوين دولة اسماعيلية . اولاً : هدم الدولة العباسية . ثانياً :
نعم اتمام انصار المهدي الامام المستور بحركات حربية رائعة تذكركنا بشجاعة
الحوارج وثباتهم فنجح ابو سيد الجنابي في هزيمة الباسيين هزائم متوالية . كما
نجح في قرمطة بلاد القطيف والبحرين وها هم اولاد زكويه بن مهرويه يهزمون
جيوش الطولونيين والباسيين ويلقون الذعر في بلاد الشام وباديتها وفي شمال
العراق العربي وقد استطاع ابو عبد الله الشيعي ايضاً بفضل هذه الدعاية المنظمة
ان يفرز عقول الكتامين فيندفمون وراه كليل المنهر يجرفون دولة الاغالبه
التي لم تستطع الصمود الا قليلاً امامهم ويفضل هذه الحماسة الحربية استطاع
الامام محمد المهدي بالله ان يحقق ما غرسه اباؤه واجداده ويقم الدولة الفاطمية
في المغرب كل هذا اذا استئينا الدولة الاسماعيلية في اليمن والدولة التي اقامها
حسن الصباح في فارس وامارة الاسماعيلية في جبال الساق في سوريا . ومها
يكن من شيء فان التاريخ الاسلامي لا يعرف مذهباً ثورياً لا يستند الى
مذهب روحي او حركة ثورية عامة لا ترجع الى الدين وان الحركة الاسماعيلية
التي هزت اسس المجتمع الاسلامي الى الاعماق وصدعت من سلطانه السياسي
واصابته في روحه وخلاله وادت بعني الزمن الى تفككه واضمحلاله وانتشاره
اخيراً الى دويلات ومجتمعات ضعيفة متابذة استطاع العرب ان يخلصها تباراً
لنفوذه واستمراره هي التي عجلت بالقضاء على هذا المجتمع وهذا السلطان ونقلته
من عهد الى عهد ومن طور الى طور .

اجل . . . لقد كان العامل الاول لنجاح الاسماعيلية في نشر دعوتهم انهم
نهجوا مذهباً سبقوا فيه غيرهم من الفرق الشيعية الاخرى فكانوا يالنون بالتخفي
بنشر تعاليم فلسفتهم ومبادئ مذهبهم على شكل خطوات تتدرج من المعاملات
البيطة حتى تصل بالمستجيب الى مبادئ فلسفية عميقة لا يفهمها الا القليلون
حتى ان المستجيب كان لا يعترف شيئاً عن الدرجات التي تلي درجته . وانما كان
هم الوصول الى درجة اعلى من الدرجة التي وصل اليها واصبح كثير من

الاسماعيلية لا يعرفون شيئاً عن زملائهم الذين انتظموا في سلك الدعوة وخفي
اسمهم على خصومهم البابين وكذلك استغل الاسماعيلية مذهب التية فكانوا
سنيين مع اهل السنة وشيعيين مع الشيعة ومسيحيين مع المسيحية لان نظام
الدعوة كان يفرض على العالم الاسماعيلي ان يكون عارفاً بكل عقائد الفرق
التي تعيش في عصره ملماً بقواعدها ونظما وفروعها وبذلك انضم اليهم آلاف
مؤلفة من الناس ولم يشعر الباسيون الا وقد قامت دولة اسماعيلية كبرى لها
جيشها واسطولها وقواعدها وممتلكاتها ومدنيتها وحضارتها .

في الحقيقة ان الحديث عن الاسماعيلية وتاريخها قد يطول وربما كانت لا
تفي فيه صفحات او ساعات ومهما يكن من امر فلنتقل الى الحديث عن
قرامطة .

في المراجع تفسيرات كثيرة للفظه (قرمط) منها ان حمدان بن الاشعث
سُمي بهذا الاسم لانه كان يقرمط في سيره اذا مشى (اي يقارب بين خطواته)
ومنها لانه كان احمر البشرة تشبيهاً له (بالقرمذ) « الأبر » واصل هذا اللفظ
يوتاني من كيراميدي وروى البعض ان هذا اللفظ مأخوذ من (اقرمط) اي غضب
او عبس ويروي الاب انساس ماري الكوملي انها لفظه ارمية نبطية من
قرمطوتا اي المدلس او الحيث او المكار او الاحتمال من (قرمطا) وهو التدليس
او الحيث او المكر أو الاحتمال هذا من جهة ومن جهة اخرى فانه عندما
استقر الامام عبدالله بن محمد بن اسماعيل ثاني الائمة الاسماعيليين المستورين في
سليمة سوريا وكنن قد جاء اليها بظن ان قتل المأمون العباسي ابناؤه وعامة اسرته
ولم يسلم منهم غير ولده الأكبر (عبدالله) فأخذ يقوم بتوزيع الدعاة سرا ويتولى
شؤون الدعوة الى حين وفاته وبعد ذلك تولى ولده احمد بن عبد الله شؤون الامامة
الاسماعيلية وقد كان عالماً من اعلام الفلسفة والعلم واليه تُنصب رسائل اخوان
الصفاء وبعد وفاته في دار هجرته بسليمة - سوريا تولى ولده الحسين المقتدي ار
الركي شؤون الامامة وقد كان ابعد شهرة من ابيه من الناحية المليية فبث
العلوم وارسل الدعاة الى كل مكان وكان يقوم برتبة الحجية بمهده ابو الشلمع
وهو نجل عبدالله القداح ويمتاز بالمقدرة الفائقة وقد انتشرت الدعوة باليمن في
عهده انتشاراً كبيراً على يد ابن حوشب منصور اليمن وفي المغرب على يد

الحلواني والي سفيان وفي بلاد فارس وخراسان على ايدي ابناء القداح الآخرين وفي بلاد النهرين على ايدي دعاة القرامطة ونستطيع ايضاً أن نضيف بأن اتحاد سلفية مركزاً رئيسياً للدعوة سهل نجاحها في الاقطار بالنظر لقرابها من العراق وبلاد العرب ووجودها كركز وسط في الشرق الارسط .

خرج الداعي الحسين الاهوازي من قبل الاسماعيلية في سلفية لنشر الدعوة فجا. الى سواد الكوفة واستمال اليه حمدان بن الاشعث ويسمى (قرمط) فاتمه وسار وراءه يستمع اليه ويقتبس من علومه ومعارفه وبعد وفاة الحسين الاهوازي استلم شؤون الدعوة في السواد حمدان وجعل منها داراً للهجرة وعندما تولى سيد الخير رتبة الحجية بمهد الامام الحسين بن احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر ثار حمدان على الدعوة وخلع اوامرها واستقل بالسواد لانه كان يرى نفسه احق بهذا المنصب منه وقد كان ثورته مداها البعيد فقد استطاع تكوين فرقة قرومطية مستقلة لا تعترف بأوامر مركز الدعوة بالسلفية ، وقد كان ارتداد القرامطة عن المذهب حدثاً عظيماً ولكن القسم الاكبر منهم لم يستطع اقتلاع جذور التعاليم التي كانت قد استقرت بالافكار ، هذا بالاضافة الى ان القرامطة قد انقسموا الى فرقتين فرقة نادت بزعامه ذكويه بن مهرويه وفرقة ثانية نادت بزعامه ابي سيد الجنابي وهم قرامطة البحرين ، اما ذكويه بن مهرويه فقد كان من كبار دعاة حمدان وكان يخضع لصهره عبدان واما احفاده فهم ابو القاسم صاحب الناقة وابو مهزول صاحب الشامة وابو العباس وهؤلاء زحفوا الى سلفية لقتل سيد الخير داعي الدعوة وفي ذلك الوقت تمكنوا من احراقها والقضاء على كل شي . . ويبدو ان تغييراً طرأ على نظام مركز رئاسة الدعوة الاسماعيلية بمد قيام الدولة الناطمية في بلاد المغرب سنة ٢١٦ هـ . فبعد ان كانت رئاسة الدعوة في سلفية تبنى بواجب توجيه شؤون الدعوة وحدها اصبحت تعمل على الاهتمام بشؤون الدولة وتاوية مطالبها السياسية ، وان رئيس هذه الدولة كان عليه ان يوجه سياسة جديدة للقرامطة الذين كانوا قد بشوا من جديد على يد ابي سيد الجنابي في اقليم القطيف جزيري البصرة ثم في اقليم البحرين وقد انقسم القرامطة الى فريقين فريق كان يرى الخضوع للفاطحيين وفريق يرى عدم الخضوع اليهم واخيراً انتصر الفريق الاول وسامت العلاقات

وكانت الحرب ثم الزحف على القاهرة أخيراً وعلى ممتلكات الفاطميين ، هذا وان هناك سبباً آخر وهو ان الامام محمد المهدي بالله قد تدخل كثيراً في شؤون القرامطة حتى لقد ذهب بعض المؤرخين الى القول بانه هو الذي امر بقتل ابا سعيد الجنابي سنة ٣٠١ هـ . ولكن من المفيد ان نعلم ان الامام محمد المهدي بالله قام بدور كبير في عزل الداعي القرمطي سميد بن ابي سعيد وساهم الى حد كبير في الثورة التي انتهت بغزله فعين محمد المهدي بالله ابا طاهر الجنابي سنة ٣٠٥ هـ على رأس القرامطة وهذا ظل على اخلاصه للفاطميين حتى وفاته سنة ٣٣٢ هـ وبموته وجد الفريق الفاطمي فرصة لخلع نفوذ الفاطميين لاسيا وان ولده سايوز كان طفلاً صغيراً لا يصلح للحكم ولا يمكن الاءتاد عليه فهب سميد وهو اخو ابو طاهر للمطالبة بالحكم فلم ير الامام محمد المهدي بدأ من اقراره في الحكم وتعيين أخيه احمد بن ابي سعيد للرئاسة وجعل سايوز ولياً للهدد وبذلك انقسم القرامطة الى مسكرين اما الاول فيميل الى الفاطميين ويتطلع الى الحكم في الوقت نفسه وعلى رأس هذا الفريق ابنا. ابي طاهر ومعهم عدد غير قليل من كبار القرامطة ووجوههم وذوي النفوذ فيهم وهم المعروفون (بالمقدانية) ويرى هذا الفريق ان تضوي طائفة القرامطة في سياستها الخارجية والمذهبية تحت لواء الفاطميين كما اکتوا في عهد ابي طاهر بن ابي سعيد سنة ٣٠٥ هـ . الى سنة ٣٣٢ هـ . واما المنسكر الثاني فهم الطبقة العليا الحاكمة من القرامطة وتتمثل في احمد بن ابي سعيد وأخوته ومن انضم اليه من القرامطة ويرى هؤلاء الاحتفاظ برئاسة دولتهم القرمطية الاجتماعية وتوجيه التوجيه الذي يعود بالنفع على القرامطة انفسهم رضي رزأؤهم الفاطميون بذلك ام لم يرضوا وافقت سياستهم سياسة الفاطميين ام خالفتها فقد كان هذا الفريق الحاكم ينظر الى الامر من ناحية المصلحة الخاصة لا من ناحية المصلحة العامة التي يشترك فيها القرامطة والفاطميون على السواء . وكان (الحسن الاعصم) بن احمد ابن سعيد من الفريق الثاني وهو الذي قاد الحملة على بلاد عمان ثم استندت اليه حملة طبريا سنة ٣٥٣ هـ ثم حملة الشام على الاخشيديين سنة ٣٥٧ هـ . وقد كان هذا الاختلاف سبباً لتقرب الفريق المعارض من الباسيين والبيهيين والمحمدانيين ، امأ سايوز فقد ظل على ولائه وكان يأتمر بأمر الفاطميين ، واشتد التنافس حتى

ان فريق سابور تمكن من غزل ابن ابي سعيد سنة ٣٥٨ هـ. ولكن سابور لم يتشع بالحكم طويلاً فقتل وبعد موته استبد بيت احمد بن ابي سعيد بالحكم من جديد وبعبارة اخرى قبض سابور على عمه ابي منصور احمد فاعتقله بتوافقة اخوته سنة ٣٥٨ هـ. ثم نار بهم اخوه فاخرجهم من الاعتقال وقتل سابورا ونفى اخوته واشياعه الى احدى الجزر بالخليج الفارسي، ولما قتل سابور اصبح الفريق المعارض لسياسة الفاطميين منتصراً وكان من اثر هذا ان وقع الاصطدام مع الفاطميين كما هو معلوم.

وتعود للاهوازي فانه لما خرج داعية الى العراق لقي حمدان بن الاشعث كما قلنا بسواد الكوفة وقد اقام في منزله وكان الحسين على غاية ما يكون من الحشوع صائماً بهاره قائماً ليله فكان المصبوط من اخذه الى بيته وتقرب اليه، ولما حضرته الوفاة جعل مكانه احمدان بن الاشعث - قرمط) وكان من استجاب اليه ايضاً ذكرويه بن مهرويه السلطاني وجلندي الرازي وعكومة البايي واسحق السرداني وعطيف التيلي وغيرهم وكان اكبر دنائه عبدان وكان يذاهم وحذق وقد جعل عبدان ذكرويه على نهر همد وجعل الحسن بن ائين والبرواني وداعية ثالثة على جهة اخرى، والوليد وابو الفوارس على جهة ثالثة ودخل في دعوته جميع العرب فلم يتخلف عنه رفاعي ولا ضبي ولم يبق من البطون المتضلة بسواد الكوفة أحد الا ودخل في الدعوة منه ناس كثير او قليل من بني عابس وذهل وعزة وتم الله وبني نعل وغيرهم من بني شيان وقد فرض عليهم بادي ذي بد. تأدية درهم عن كل واحد وسمى ذلك (القطرة) على كل واحد من الرجال والنساء فادعوا الى ذلك فقرهم مدة ثم فرض عليهم (الهجرة) وهو دينار عن كل نفس وتلا نص الآية القرآنية الشريفة .

(خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتذكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك سكن لهم والله سميع عليم). وقال هذا تأويل هذا، اذنفوا ذلك اليه وتعاونوا عليه فمن كان فقيراً اسفوه فقرهم مدة ثم فرض عليهم (البلغة) وهي سبعة دنائير وزعم ان ذلك هو البرهان الذي اراده الله بقوله (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وزعم ان ذلك بلاغ لمن يريد الايمان والدخول في السابقين المذكورين في القرآن الكريم (والسابقون السابقون اولئك المقربون) فلما

تمهد له الامر فرض عليهم خمس ما ياتكون وما يتكسبون وتلا عليهم الآية القرآنية الكريمة (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه) وقد آثروا ذلك اليه فكانت المرأة تخرج خمس ما تنزل والرجل يخرج خمس ما يكسبه فلما تم ذلك فرض عليهم (الالفة) وهو ان يجمعوا اموالهم في موضع واحد وان يكونوا فيه اسرة واحدة لا يفضل احد منهم صاحبه واخاه في ملك وتلا عليهم الآية القرآنية الكريمة (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة اخوانا) و(لو انفقنا ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم وان كان الله الف بينهم انه عزيز حكيم) وعرفهم ان لا حاجة لهم الى اموال تكون معهم لان الارض جميعها ستكون لهم دون غيرهم وطالبيهم بشراء سلاح واعداه للوقت المناسب واقام في كل قرية رجلاً مختاراً من تقاتها تجتمع عنده الاموال من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم ولا يُبقي على فقير بينهم ولا على محتاج او ضعيف وقد اخذ كل فريق منهم بالاتكاشا في صناعته والتكسب بجهده ليكون له الفضل في رتبته وقد قال الرحالة الكبير ناصر خسرو ما يلي :

كان في الاحساء اكثر من عشرين الف محارب ولأ مات داعيمهم الكبير اير سيد انتقلت الحكومة الى مجلس مؤلف من ستة من تلاميذه فحكموها بالعدل والانصاف وكان ايضاً لهذه الامارة ثلاثون الف زنجي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين وليس عليهم ضرائب ولا اعشار واذا افتقر انسان واستدان اعانه الآخرون ليستيد وضعه ونيس للدائن غير رأساله وكل غريب يتزل هذه المدينة وله صناعة يُعطى ما يكفيه من مال يشتري به ما يلزم صناعته من عدد وآلات وهناك بيوت مدة لكن الفقراء على حساب المجموع وقد شاهد ناصر خسرو في الاحساء طواحين تملكها الدولة وتدير شؤونها وتطحن الحبوب للرعية مجاناً وهذا النظام كان للمجتمع وللدولة وكان يختلف كثيراً عن اي نظام معروف في العالم الاسلامي كله وهو نظام ألف تأليفاً حسناً بحيث اثار عداوة الطبقات الحاكمة وبغضاًها .

وقد زار ابن حوقل ايضاً البحرين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي وذكر شيئاً سيراً جديداً عما يتعلق بالنظام الاجتماعي للدولة القرمطية

ولكنه يعود وييدي بعض الملاحظات الهامة عن بنائها السياسي فدولة القرامطة عنده كانت من نوع الجمهورية الديمقراطية ولم يكن حاكمها مستبداً بأي حال بل هو رئيس جماعة متساوية بالحقوق والواجبات يعاونه في الحكم مجلس مؤلف من أتباعه المقربين ومن تربطه بهم روابط النسب وكانت الأسرتان الحاکمتان أسرة - أبي حميد الجلابي وأسرة ابن سببر فاجتبا الحول والطول ويظهر ان أسرة ابن سببر كان لها زعامة محلية قبل تكوين القرامطة ويظهر أيضاً ان تدخل الخلفاء في شؤونهم والقاء بعض زعماء الشام اليهم واغراؤهم ايام مجرب سيادتهم الفاطميين كما كان لتدخل الخلفاء العباسيين بين الفريقين اثر كبير في هذا السيل مضافاً الى ذلك ان الفاطميين باستلاكهم ديار الشام منعوا ضريبة ضخمة عن القرامطة ومن جملة الاسباب ان الفاطميين عندما فتحوا القطر المصري عمدوا الى اتخاذ الشام وديارها جسراً يعبرون منه لفتح بغداد نفسها ولم يكن القرامطة يتصورون ان يكائنوا يستطيع ان يقف في سبيلهم ويصدتهم عن تحقيق سياستهم لانهم كانوا في ذلك الحين سادة على البلاد الممتدة على شاطئ الخليج الفارسي القربي من عمان الى مصب نهر دجلة والفرات والصحراء .

في تاريخنا التركي ظواهر يجلب على الباحث ان يبحثها على ضوء التجرد والانصاف وان لا يثر بها سرور الكرام ، ففي تاريخ الاسماعيلية ظاهرة للان لم يتدر الى معرفتها ولم يقف على وقائها الباحثون ، هذه الظاهرة تتجلى بالاسباب الرئيسية التي حدثت بالقرامطة وهم فرغ من الاسماعيلية للانفصال عن الدعوة الام مضافاً الى ذلك الاسباب التي جعلت الائمة الاسماعيلية يمدون الى تغيير اسم دعوتهم من اسماعيلية الى فاطمية بعد نقل مركز الدعوة من سوريا الى القرب :

اجل ... لقد بحث كثير من هذا الموضوع وتساءلوا عن اسباب عدم تسمية الاسماعيلية بطورين نسبة الى علي بن ابي طالب ؟ واطلقوا الى افكارهم عنان التنازل والاستفسار وراحوا يفوضون ببحر من الاستنتاجات والتخمينات . . . ولكنني اتولها بصراحة انني للآن لم اطلع على بحث يؤدي بي الى الهدف المنشود ومعرفة السر الكامن وراء هذه الناحية الهامة على انه لا بد لي من الاتيان على اجتهاد في هذا الباب لم يسبقني اليه احد ومن المفيد ان اذكره هنا باختصار :

من المعلوم ان العقيدة الاسماعيلية التي كان مركزها ارنيسي في الشرق كانت تقوم على اساس من الظل الشديد فمركز علي بن ابي طالب وولده الائمة من بعده كانوا يشكلون اهم ناحية في الدعوة ولا اذهب بعيدا اذا قات ان الامام كان يحتل مركز المثل للعقيدة الالهية في الارض وهو مصدر التشريع المطلق والتأويل والناطق بالقرآن الى ما هنالك من القاب وبحوث فلسفية جاءت جميعها تثبت هذا المركز . وهذا هو احد كبار شعرائهم ابن هاني يذكر لنا بعض هذه الاعتقادات :

هذا المزمع متوجهاً والدين	هذا سداً والمخلاق كلها
بدأ الاله ونبيها المكنون	مذاخيرُ النشأة الاولى التي
سحت على الانواء منك بين	في النبت شبه من ندادك كافا
فكأن جودك بالخلود رهين	اما التي نور الذي اولينا
والفوق انت وكل فرق دون	النور انت وكل نور ظلمة
واقرب بهم زلفى فانت مكين	فارزق عبادك منك فضل شفاعي

ولقد ما كانت الاشياء	هو علة الدنيا ومن خلفت له
في راحتك يدور حيث يشاء	لا تسألن عن الزمان فانه

غبار موبغة الذنوب صفوحا	ندعوه منتقماً عزيزاً قادراً
لدعيت من بد المسيح مبحا	اقست لولا ان دعيت خليفة
وتنزل القرآن فيك مدحا	شهدت بغيرك السورات الملى
عنه الملائك بكرة واصبلا	هذا ابن وحي الله تأخذ هدجا
مضابحاً التكبير والتبلا	زعمت مواكبه الجبال فاعلنت
لم يوت جبريلاً وميكائلا	وعلت من مكنون سر الله ما
لم يخلق النسيه والتبلا	لو كان اعطي الخلق ما اوبته

فاذا الانام جبه دما	وظنفت اسأل عن اغر مجمل
فلمت أن المطلب الملقاه	حتى دقت الى المزمع خليفة
وكافا الدنيا عليه غناه	جود كان اليم فيه ظانه

وتفرقت الدعوة تدعو لهذه التعاليم وتقبلته الافكار وانضمت اليه اقوام عديدة لا تعد ولا تحصى غير انه لوحظ اخيراً ان هذا النوع من الفلو كان عاملاً كبيراً في تأخير سير الدعوة في الاقطار المجاورة وخاصة في اليمن والمغرب والحجاز فمدت التعاليم من غار عال الى هدر. وسطي لان عقول سكان هذه الاقاليم كانت قد تأثرت بالتعاليم السنية الاسلامية الى حد ما، فصل القائلون على شؤون الدعوة واذاغ الامام الذي كان بليّة اوامره وتعليماته على الدعوة بالاقتصار على ان يكون علي بن ابي طالب صاحب المركز الثاني في الدعوة بعد النبي محمد لانه وارثه والقائم على شؤون الدين بعده والمحافظة على كل ما تركه من تراث اسلامي وقرروا ان هذا الاعتدال بالاعتقاد يمكن ان يتقبله عقول المسلمين ولكن ظل فريقين متبايناً على التعاليم الاولية لا يجيد عنها ولا يتقبل عنها بديلاً وهذا الفريق هم القرامطة المتحمسين الذين اعلتوا خروجهم على الدعوة الرئيسية واسرو معتقداً مستقلاً ودعوة منفصلة لا علاقة للدعوة الرئيسية بها ولا غرابة اذا قلنا ان هذا الفريق المتحمس هو الذي ذهب الى الحجاز وجاه بالجبر الاسود ثم قتل القتلى وارتكب المحرمات واعلن حربه على كل شيء. انه علاقة بالاسلام وبعده هذا ترى الامام المهدي باقته رغم كل شيء. يُذيع امرًا عليهم بأمرهم فيه. ردد الحجز الى مكانه وارجاع ما نهب لاعتقاده ان هذا الصل مما يشتر العالم الاسلامي وانه لا يتفق وما جاءت به تعليماته هذا من جهة ومن جهة اخرى فانتزى الائمة الاسماعيلية عندما يغادرون سوريا الى المغرب يمدون الى تميم اسمهم من اسماعيليين الى فاطميين وهذا يفسر انهم ارادوا ان يتقربوا من العالم الاسلامي بانتسابهم الى ابنة النبي محمد فاطمة الزهراء لان كل شيء كان مفروضاً به ان يتغير بالنسبة لاقليم المغرب الذي يختلف بمقائده وعقلية اهله، أما الانتساب الى علي بن ابي طالب فربما كان يسبب بعض الامتصاص مضافاً الى ذلك انه كان لملي جملة زوجات اخرى واولادٍ من هذه الزوجات وان العالم الاسلامي كان على استعداد ان يقبل الامام قبولاً حسناً ويحمله المترلة الاولى اذا كان ينحدر من نسل فاطمة بنت نبي المسلمين مباشرة.

واخيراً فقد يطول البحث وقد ينشب ولكن امراً واحداً لا بد لي من قوله وهو ان الحركة الاسماعيلية جديرة بالدراسة ففلتتها كثر مقلد لم يتسنّ للعالم الوصول الى جواهره ونفائسه .

ولكي تدرس هذه الحركة الفكرية دراسة وافية يديّة انصح ان يتبع فيها الاختصاص فالاسماعيلية في سوريا تختلف عقائدياً وفلسفياً واجتماعياً عن الاسماعيلية في اليمن وقرامطة العراق والبحرين غير الفاطميين في مصر ، والاسماعيلية في فارس غير الاسماعيلية في المغرب وهكذا دواليك .

هذا ما اتسع له الوقت الآن عن موضوع الحركة الاسماعيلية التاريخية اتينا على ذكره باختصار على ان نعود اليه في الاعداد القادمة من مجلة المشرق القراء .

